أثر الحضارة العربية في الأندلس على أوربا خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين

د. بشرى محمود الزوبعي
مركز دراسات وبحوث الوطن العربي

المقدمة

اذا كانت قيمة كل حضارة وأهميتها تقاسان بعظمة تأثيرها المادي والأدبي ، ودوام هذا التأثير في إطار التاريخ العام ، فمن الممكن القول : إن الحضارة العربية في الأندلس كانت صفحة مشرقة في الحضارة الإنسانية ، على الرغم من كل نقاط الضعف والخلافات التي شهدها الحكم العربي الإسلامي في الاندلس طيلة ثمانية قرون ونيف . وان هذه الصفحة صنعها مسلمو الاندلس من عرب وبربر وسكان أصليين ، وقد ساهم فيها نصارى البلاد وغيرهم من أهل الذمة .

ومما لاشك فيه أن أثر هذه الحضارة كان حاسماً في تكوين الفلسفة والعلم والشعر وجميع ثقافة أوروبا المسيحية ، بل إن تأثيرها قد بلغ حتى ذرى الفكر الوسيط، في كل ناحية من نواحي جبال البيزنية والبحر المتوسط . وقد نظمت الشاعرة الألمانية روسوندة (Hroswitha) أبياتاً من الشعر في منتصف القرن العاشر اطلقت على العاصمة الأموية (قرطبة) (زينة الدنيا)، فيما ارسل (أوتون الأول أمبراطور جرمانيا سفيره "جان دي غورتس") في العام 956م الى عبد الرحمن الثالث ، فينقل الينا مترجم حياة هذا السفير مشاعره التي أحس بها أزاء حضارة كان يعرف عنها من قبل أنها رقيقة وناعمة .

في الواقع ان القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) يسجل ذروة أزدهار الحكم الأموي في الأندلس ، مقترناً بأسم عظيم هو أسم عبد الرحمن الناصر الذي بانتحاله صفة الخلافة السامية قد جعل الاندلس بلداً إسلامياً جديداً .. مملكة متينة البنيان .. متحررة من آخر ما كان يربطها من الالتزامات ، حتى ذلك الوقت ، بسائر العالم الإسلامي ... دولة قوية ، تستطيع دول أوروبا المجاورة التعامل معها في شتى المجالات ، فاتحا بذلك باباً جديداً للنفوذ الفكري ، ولكي تقوم

المؤثرات الحضارية بدورها المتبادل ، الذي أثمر فيما بعد عن ذلك النمو الحضاري الذي تشهده أوروبا اليوم.

عصر الازدهار الحضاري في الأندلس المسلمة :

عندما دخل العرب المسلمون الى الاندلس في العام 92هـ/711م ، لم يجدوا فيها حضارة عريقة خاصة بها يمكن الاستفادة منها في تطوير حضارتهم الجديدة القادمة معهم من المشرق العربي ، ولذلك فقد اتجهت الأندلس المسلمة الى المشرق ، لتأخذ منه أساليب الحضارة في النظم والفكر ، وتستفيد مما وصلت اليه من تقدم وأزهار ، ولاسيما أوروبا كانت حينذاك تعيش حالة من التخلف الحضاري والاجتماعي والسياسي[1] . فضلاً عن خضوعها أيضاً لمؤثرات حضارية محلية بحكم البيئة التي نشات فيها[2] .

ومع ذلك فقد ظلّ المجهود العلمي والحضاري للأندلس المسلمة ، على الرغم من كل التأثيرات طابعاً عبقرياً بارزاً أنتجه العرب هناك لأموا بينه وبين البيئة الطبيعية والبشرية والاجتماعية ، واعلنت الأندلس شخصيتها المستقلة مع حرصها الدائم على الصلة الوثيقة بالتقاليد والتراث المجيد للأمة العربية في المشرق[3] .

شهد القرنان التاسع والعاشر الميلاديين من الحكم العربي الإسلامي في الاندلس مطلع المرحلة التي بدأ علماء الأندلس فيها بتقديم أضافات علمية أصلية بعد أن تجاوزوا المعرفة المشرقية العباسية . فإلى جانب النزعة الاستقلالية الجديدة التي أظهرها كبار الشخصيات أزاء ثقافة المشرق وعلومه تضافرت في الأندلس آنذاك مجموعة من العوامل والظروف[4] ، لتبلغ بالحضارة العربيةفي الأندلس شأوا بعيداً من التقدم والازدهار ولاسيما في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (300 – 350هـ/912 – 961م) الذي أرتقت فيه قرطبة الى أوج عزها ، مما دفع الراهبة السكسونية المعاصرة (هرسوثيا) أن تسميها " زينة الدنيا " ، فيما كتب المؤرخ المغربي ، المقّري عن هذه المدة بعد سبعة قرون قائلاً : "تتفوق قرطبة على عواصم العالم بأربعة أشياء : القنطرة فوق نهرها ، والجامع ، وهما أول أثنين ، والثالث مدينة الزهراء ، لكن الرابع أعظمها وهو العلم"[5] .

ولاغراض هذا البحث سنطلق على سنوات هذين القرنين أسم (عصر الأزهارد الحضاري) الذي يبدأ بسنة (206هـ /822م) الى سنة (399هـ /1009م) .

لقد سجل عهد الحكم بن هشام الربضي (180هـ / 796م _ 206هـ/822م)، وهو اول أمراء هذا العصر ، بداية بزوغ مظاهر النشاط الثقافي والفني في الاندلس ، حيث ظهر شعراء ذوو مكانة ، مثل : عباس بن ناصح ويحيى الغزال وابراهيم بن سليمان الشامي ، الى جانب عدد من الفقهاء واللغويين ، بل ومن مجيدي الغناء[6] .

وبعد ذلك ، هبت رياح التأثير العراقي ، الذي أزدهر هذه المرحلة لعوامل كثيرة على الاندلس التي توافرت لها في الوقت نفسه عوامل جذب لهذه الحضارة منها : رغبة الأمير عبد الرحمن (الثاني او الاوسط) بن الحكم (206 – 238هـ/822–852م)في ترك سياسة الانعزال عن العراق التي سار عليها آباؤه ، وان يساير حركة الازدهار الحضاري التي اشتهرت بها بغداد ، ففتح أبواب الاندلس امام التيارات العراقية فضلاً عن بروز مظاهر الترف والرفاه في المجتمع الأندلسي بسبب الأزدهار الاقتصادي ، مع الأخذ بالحسبان اقبال أهل الأندلس على الحياة الفكرية التي نشطت من جراء الاستقرار السياسي وما تبعه من نشاط اقتصادي[7] .

كان عبد الرحمن رجل حضارة بمعنى الكلمة ، وكان يبلغه ما وصلت اليه بغداد من الرقي والعمران في عهدي الرشيد والمأمون ، ولهذا فقد رأى أن يستفيد بقدر ما يستطيع من ثمرات العباسيين وثقافتهم الراقية ، وعني بالاستفادة من النهضة العلمية ببغداد ، فبعث بشاعره عباس بن ناصح الثقفي الى العراق ، لكي يجلب له كتب "علوم الاوائل" ، أي الرياضيات والفلك والطب وما أليها ، ورحل الى بغداد سفيره وشاعره يحيى بن الحكم الغزال ، وأدخل الى الأندلس مذهب الشعراء المحدثين من أمثال أبي نواس وابي العتاهية ، كما وفد على العراق كثير من طلبة اللغة والنحو والتفسير وعادوا الى بلادهم محملين بزادٍ ثقافي وفير في هذه العلوم[8] . ويشيد المقري بسيرة هذا الأمير فيقول عنه : "وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة ... ، واتخذ القصور والمتنزهات ، وجلب اليها المياه من الجبال ، وجعل لقصره مصنعاً اتخذه الناس شريعة ، واقام الجسور ، وبنيت في أيامه الجوامع بكور الاندلس ..."[9] . وقام بتوسيع المسجد الجامع بقرطبة ورفع سقفه ، وابتكر مهندسوه في المسجد تلك الاقواس المزدوجة التي تعد من روائع مبتكرات العمارة الأندلسية[10] .

واستقبل الأمير عبد الرحمن في بلاطه شخصية حضارية هو علي بن نافع الموسيقي المعروف بزرياب الذي لم يكن مجرد موسيقار ومغن بارع فحسب ، بل كان ممثلاً لرقة الحضارة العباسية ورقيها ، وتقاليدها ، ورسومها وآدابها في كل شيء : في طريقه الزي ، وفي آداب الموائد ، وفي أوضاع ما نسميه الآن بـ"البروتوكول" و "الاتيكيت" . بل حتى في طريق تصفيف شعر

الرجال والنساء[11]. وفي ميدان عمله أظهر زرياب أنه موسيقي من الطراز الأول ، فأنشأ معهد للموسيقى يعلم فيه الشبان والشابات وكان يُعنى بتربية الصوت وتوسيع مداه ، فتتسع قدرته للتعبير الغنائي عن المعاني والأحاسيس ، ثم أدخل تعديلاً جوهرياً على العود ، فأضاف اليه وترا خامساً واصلح الدفوف والمزامير وأحكم صنعها واخترع الفرق الموسيقية التي تجمع بين النشاد الجماعي والفردي فضلاً عن العزف . وهو اول من أنشأ في الاندلس المسرح الصغير الذي تجلس عليه الفرقة الموسيقية وكان ذلك المسرح يسمى بالستارة.

وكان غناء أهل الأندلس الى ذلك الحين غناء عربياً بسيطاً ، هو الحداء ، فأدخل زرياب موسيقى عالية ، عرفت بأسم "الزريابية" وأصبح الحداء أو الحدو ، هو الغناء الشعبي ، على حين أن الموسيقى الزريابية أصبحت الموسيقى الكلاسيكية الراقية في الأندلس[12].

استلم الأمير محمد (الأول) مقاليد الحكم من أبيه عبد الرحمن بن الحكم (238هـ / 852م – 273هـ/886م) ، وكان هو الاخر مشجعاً للثقافة وحرية الفكر، كما يبدو في موقفه من الفقيه المحدِّث بقي بن مخلّد (ت 276هـ/889م) الذي قدّم بعد رحلته الى المشرق بمجموعات من الاحاديث وبرسالة الامام الشافعي ، فثار عليه فقهاء المالكية وأثار العامة عليه وكادوا يفتكون به لولا حماية الأمير وتشجيعه له على نشر علمه .

وفي عهده نبغ علماء مرموقون مثل : عباس بن فرناس (ت274هـ/887م) ، وهو حكيم ومخترع ومنجم وموسيقي وشاعر ، وصاحب أول محاولة للطيران[13] .

وقد أشار (ليفي بروفنسال) الى بعض مواهب عباس بن فرناس فقال : "وعالماً فلكياً رسمياً هو عباس بن فرناس ، يكتشف في مختبره طريقه لصناعة البلور ، وفي تجربة مذهلة نفذها في الفضاء على طائرة بلامحرك ، فقطع مسافة ما ، ثم سقط ، وحالفه الحظ ، اذ نهض من دون ان يصاب بأي أذى تقريباً تماماً كأيكار Icare ثاني مبشرٍ بالطيران في أوائل العصور الوسطى"[14] .

وبعد ذلك سجلت السنوات الاولى من القرن العاشر ذروة أزدهار الحكم الأموي في الاندلس، مقترنة باسم عظيم هو أسم عبد الرحمن الناصر (300 – 350هـ/912 – 961م) الذي شهد حكمه أزدهاراً رائعاً في جميع الفكر والحضارة ولم يكن لها مثيل حتى ذلك الحين[15]. ويعدّ عصره من أزهى عصور الأندلس في جميع المجالات.

ويكفي ان نشير الى بنائه عدداً من القصور الفخمة في قرطبة ، ثم بنائه "مدينة الزهراء" في شمال غربي العاصمة ، وهي التي بقيت أطلالها حتى اليوم شاهدة على رقي الفن المعماري

الاندلسي ، وعلى مدى غنى الخلافة وترفها الفائق . ولابد أن نشير كذلك ، الى زيادته في المسجد الجامع بقرطبة ، وهي زيادة ضاعفت مساحته ، وبناء صومعة الجامع (اي مئذنته) وتجديد محرابه الذي يعد حتى اليوم آية من آيات الفن الإسلامي في الأندلس[16] . كذلك ، اقام الناصر بما يعرف بالظلة في صحن المسجد الجامع ، وهي سقف متحرك يقام من اعمدة الخشب والحصر ، ليستظل بها الناس أثناء الصلاة في الصيف ، ثم ترفع بعد الصلاة ، لأن صحن الجامع الفسيح كان مزيناً باشجار النارنج ، وهذه ظاهرة تنفرد بها صحون مساجد الأندلس من غيرها من صحون المساجد في العالم الإسلامي . ويعد الناصر من أكثر حكام المسلمين في مختلف نواحي بلاده ، فإليه يرجع الفضل في تجديد او انشاء عدد كبير في مساجد مدن الأندلس من شماله الى جنوبه ، ولانزاع في أن هذا الرجل يعد من كبار البنائين في تاريخ الإسلام . ولم تقتصر منشآته على القصور والمساجد ، بل اليه بنسب أنشاء دار السكة في قرطبة ، وتجديد قنطرة الوادي في "أودية" وتجديد قنطرتي سرقسطة وماردة[17] . وأما عنايته بالثقافة فيبدو في كثرة ما شهده عصره من العلماء في كل فروع المعرفة . وفي أول عهده ظهر كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه (328هـ/940م) ، وهو يعد حتى اليوم من المصادر الأدبية الرئيسة . وفي سنة 942م أستقدم الناصر العالم اللغوي الكبير (أبا علي القالي) الذي أصبح رائداً لنهضة لغوية ونحوية عظيمة في الاندلس . وحفل بلاطه بالفقهاء والادباء والشعراء والاطباء، ومما يذكر أن الامبراطور البيزنطي حينما بعث اليه بسفارته أهدى اليه كتاب (ديو سقوريدس) في الاعشاب الطبية ، فندب الناصر من يقوم بترجمته الى العربية[18] .

وازدادت النهضة الفكرية في عهد الحكم المستنصر (350 – 366هـ) قوة وازدهاراً . وكان الحكم ، وهو الخليفة الاديب العالم ، رائد هذه الحركة الفكرية العظيمة . وكان من ظواهرها قيام جامعة قرطبة العظيمة ، واحتشاد أكابر الاساتذة بين عقودها ، وانشاء المكتبة الأموية الكبرى التي بذل الحكم في أنشائها الجهودالعظيمة والأموال الزاخرة ما لم يسمع مثله[19] ، حتى كان له وكلاء في البلاد الإسلامية الكثيرة ، يزودونه بكل ما ينتجه العلماء المسلمون من المؤلفات ، واقام لها موظفين للعناية بشؤونها ، وزاد عدد كتبها الى أربعمائة ألف كتاب[20] . وقد ذكر أحد المؤرخين أن مائة وسبعين أمراة في ضاحية قرطبة الشرقية وحدها يعملن يومياً في نقل نسخ من القرآن بالخط الكوفي . فيما قال كاتب عربي أسباني في القرن الخامس الهجري ، هو سعيد الطليطي ، في كتابه "تصانيف الأمم" عن الحكم المستنصر : "هو الذي جلب أهم المؤلفات الرئيسة النادرة

المتعلقة بالعلوم القديمة والحديثة ، من بغداد وأماكن أخرى في المشرق . وجمع منها في اواخر حكم أبيه ومن ثم طيلة حكمه هو نفسه ، عدداً يضاهي تقريباً العدد الذي جمعه الأمراء العباسيون برمتهم ، في وقت أطول بكثير"[21] . وكان الحكم نفسه كما ذكر المقري نقلاً عن أبن الأبّار : "في المعرفة بالرجال والاخبار والانساب أحوذياً ، نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله"[22] . كما احتشد حول بلاط الحكم ، جمهرة من أكابر العلماء والشعراء والأدباء مما جعل من قرطبة أعظم مركز علمي في الغرب كله ، الإسلامي والمسيحي على حدٍ سواء[23] .

وكان المنصور بن أبي عامر (367 – 392هـ/977 – 1002م) آخر حكام عصر الازدهار الحضاري في الاندلس المسلمة ، الذي لم تمنعه أعماله العسكرية المتواصلة من العناية بالمنشآت العمرانية ، وعن تشجيع الثقافة والأدب . وقد بدأ حكمه الاستبدادي ببناء قصر ريفي له على مقربة من مدينة الزهراء وسماه العامرية. وفي سنة369هـ/979م ، بنى مدينة جديدة سمّاها "الزاهرة" على ضفاف الوادي الكبير وأسكنها وزراءه وقادته ورجال دولته . وكانت من أهم منشآته زيادته للمسجد الجامع بقرطبة بمقدار الثلث من الناحية الشرقية حتى بلغت مساحته (24.300)م2 ، ولكن البناء نفسه يعد فقيراً من الناحية الفنية اذا ما قيس بما قام به الحكم المستنصر ، كما عني المنصور بالثقافة . فاستدعى العالم اللغوي الاخباري الشاعر (صاعدا البغدادي) ، لينافس به (أبا علي القالي) الوافد على عبد الرحمن الناصر واغدق على الشعراء الذين كانوا ألسنة دعاية له ، فخلدوا وانتصاراته ، وكان من أشهرهم شاعره (الأثير ابن دراج القسطلي)[24].

على أننا يجب ان لاننسى أن قوة الدفع السائدة في عصر الخلافة كانت هي السبب الأساسي لاستمرار مسيرة الثقافة الأندلسية في عهد المنصور ، لاننا لم نجد في هذا العهد تقدماً ملحوظاً وجدياً في أي ميدان من ميادين المعرفة ، ولم نرى أعلاماً بارزين في أي فرع من فروع الثقافة المختلفة ، باستثناء تلك البقية من اعلام عصر الخلافة . ولعل من عوامل أستمرار الدفع الأخرى للثقافة الأندلسية في هذا العهد ، هو ان الحاجب المنصور كان على صلة قديمة بالثقافة ، وقد أرتبط بها منذ نشاته ، وانه كان مصاحباً للعلماء ويروي عنه ، أنه كان له مجلس علمي يضم كبار علماء عصره ، وأن هذا المجلس كان مصاحباً للعلماء ويروي عنه ، أنه كان له مجلس علمي يضم كبار علماء عصره ، وأن هذا المجلس كان يعقد اجتماعات دورية أسبوعية يحضره المنصور طيلة أقامته بقرطبة . ومن الملاحظات الأخرى على علوم هذا العهد ، هي خمول الدراسات الفلسفية التي لقيت مقاومة من لدن الحاجب المنصور ، من أجل أرضاء عامة الناس ،

وكسب تأييد الفقهاء . ومن أخطر أعماله في هذا المجال أحراقه لكتب الفلك والمنطق والفلسفة ، التي كانت تمتلىء بها مكتبة الحكم المستنصر . وبذلك خمدت روح البحث العلمي ، وقيدت الحرية الفكرية ، وتهيب الناس من دراسة العلوم العقلية ، وقد تخفى بعض العلماء ، وهرب القسم الآخر نحو المشرق ، للتخلص من الاضطهاد[25] . كل ذلك كان إيذاناً ببدء افول شمس الحضارة العربية في الأندلس التي لم يغمر إشعاعها بلاد الأندلس فحسب ، بل أمتد علومها وآدابها الى ممالك اوروبا التي كانت غارقة يومذاك في ظلمات الجهل والتخلف .

طرق انتقال الحضارة العربية في الاندلس الى أوروبا

كانت قرطبة في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، أيام خلافتي عبدالرحمن الناصر والحكم المستنصر عاصمة الإسلام السياسية الأكثر سطوعاً في ذلك الوقت ، والاكثر تحضراً في أوروبا ، كما يشير المؤرخ المعروف (رامون فندث بيدال) . ومع ان صورة العالم الإسلامي في نظر نصارى الغرب غدت منذ القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، صورة عدو تجب محاربته ، لأن الضرورة كانت تقتضي الحفاظ على تماسك العالم الغربي ووحدته عبر تصورات ذهنية ذات شحنة عقائدية كبيرة عقب سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب ، فقد حدث تواصل حضاري شيئاً فشيئاً بين العالمين المتصارعين ، وكانت تربة شبه الجزيرة الايبيرية مثالاً لذلك التواصل الذي شمل قارة أوروبا برمتها[26] .

كانت طرق التواصل التي انتقلت بوساطتها الحضارة العربية الإسلامية في الاندلس الى الممالك الأوربية تتمثل في الآتي :-

أولاً : محبو العلم الأوربيون الذين توافدوا على بلاد الاندلس بحثاً عن المعرفة والثقافة العربية الإسلامية، وكان هؤلاء يقضون السنوات الطوال في الدراسة والتتبع، والاطلاع على كتب العرب فيها . وفي مقدمتهم الراهب الفرنسي (جربرت دي أورباك) الذي وفد الى الاندلس في عهد الحكم المستنصر ، وعني بصورة خاصة بدراسة العلوم الرياضية ، وبرع فيها ، حتى خيل لعامة الفرنسيين – بعد رجوعه – آنذاك بأنه ساحر ، وأصبح فيما بعد بابا روما بأسم البابا سلفستر الثاني (390 –394هـ) ، وله دوره البارز في نشر علوم العرب في اوروبا[27] .

كما يمكن الاستنتاج أفتراضاً من ظروف هرمان الكسسيح(1013 – 1054م) ، وهو ابن أمير دالماسيا من أصل سويسري ، وقد كتب في الرياضيات والتنجيم عن تأثير الحضارة العربية

الأندلسية . فهذا الأمير لظروفه المرضية لم يزر الاندلس ، الا أنه استفاد أولاً من ترجمات لعمال عربية كالتي وجدت في شارتر أو التي عملت لجربرت . واستفاد ثانياً من الطلاب الأوربيين العائدين من الاندلس ، والذين كانوا يمرون بدير (ريخناو) الذي يقيم به (هرمان) ، ويقضون فيه مدة قبل رجوعهم الى بلادهم . وعن هؤلاء نقل (هرمان) كل ما جلبوه من الآلآت الفلكية العربية وفي مقدمتها الاسطرلاب[28] .

ثانياً : البعثات العلمية ذات الطابع الرسمي التي أرسلتها الى الأندلس حكومات بعض الدول الأوروبية . وقد توالت البعثات الأوروبية على الاندلس بأعداد متزايدة سنة بعد أخرى ، حتى بلغت سنة 312هـ في عهد الخليفة الناصر زهاء سبعمائة طالب وطالبة . وكانت إحدى هذه البعثات من فرنسا برئاسة الأميرة (اليزابيث) أبنة خال الملك لويس ملك فرنسا ، وبعث فيليب ملك بافاريا الى الخليفة هشام الثاني (توفي حوالي العام 403هـ) بكتاب يطلب فيه الإذن بأرسال بعثة من بلاده الى الأندلس ، للأطلاع على مظاهر التقدم الحضاري فيها والاستفادة منها ، فوافق الخليفة هشام ، وجاءت بعثة هذا الملك برئاسة وزيره (ويلمبين) الذي يسميه العرب (وليم الأمين) . وقد كانت هذه البعثة التي ترأسها (وليم الأمين) تتألف من (215) طالباً وطالبة وزعوا على جميع معاهد الأندلس . وتخبرنا الروايات أن ثمانية من أفراد هذه البعثة اعتنقوا الدين الإسلامي ورفضوا العودة الى بلادهم . ومن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن بمشاهير من رجال الأندلس في ذلك الوقت ، وانجبن عدداً من العلماء كان منهم عباس بن مرداس الفلكي[29] .

ثالثاً : استقدام علماء الأندلس الى أوروبا ؛ لتأسيس المدارس فيها ونشر ألوية العلم والعمران ، ففي خلال القرن التاسع الميلادي وما بعده وقعت حكومات هولندة وسكسونيا وانجلترا على عقود مع حوالي تسعين من اساتذة العرب في الأندلس بمختلف العلوم . وقد أختير هؤلاء من بين أشهر العلماء الذين كانوا يحسنون اللغتين الأسبانية واللاتينية الى جانب العربية . ووقعت تلك الحكومات عقوداً أخرى مع حوالي مائتي خبير عربي في مختلف الصناعات ، ولاسيما أنشاء السفن وصناعة النسيج والزجاج والبناء وفنون الزراعة . فيما أقام بعض المهندسين العرب أكبر جسر على نهر التايمس في بريطانيا عرف بأسم (جسر هليشم Helichem) . وهذه الكلمة تحريف لكلمة هشام خليفة الأندلس الذي أطلق الانجليز أسمه على هذا الجسر عرفاناً ؛ لأنه أرسل اليهم أولئك المهندسين العرب . وكذلك كان المهندسون العرب هم الذين شيدوا قباب الكنائس في بافاريا ،

وماتزال توجد في إحدى المدن الألمانية (شتوتغارت) حتى اليوم سقاية ماء تدعى (اميديو) ، وهو تحريف لكلمة أحمد المهندس العربي الذي بناها[30].

رابعاً : تناقل النصوص الشفوية للقصص العربية والشعر العربي ، التي روجها الرواة الجوالون بين أهالي الغرب من دون أن يدرك هؤلاء أصلها ومصدرها[31] .

لقد ظهر تأثير اللغة العربية بين أبناء النصارى الساكنين في شبه الجزيرة الأيبيرية ، بشكل أعمق من مجرد تناقل نصوص شفوية عن طريق أفراد يجوبون البلاد . وهذا مايشير اليه (الفارو القرطبي) ، وهو أحد أنشط رجال المقاومة ضد الإسلام في شبه الجزيرة خلال القرن التاسع الميلادي : "أن أبناء طائفتي يحبون قراءة الاشعار وتراث الخيال العربية ، وهم لايدرسون كتابات رجال ، ليدحضوها ، وأنما يدرسونها ؛ ليكتسبوا نطقاً عربياً سليماً ورفيعاً .. جميع الشباب المسيحيين الذين يعتبرون لموهبتهم لايعرفون سوى اللغة العربية وآدابها ، أنهم يقرؤون ويدرسون الكتب العربية بنشاط منقطع النظير ، ويشكلون منها مكتبات هائلة بأثمان باهظة ، ويعلنون عن هذه الآداب في كل مكان انها مدهشة ... فيا للألم ! لقد نسي المسيحيون كل شيء حتى لغتهم الدينية . انك تكاد لاتعثر بيننا ، الا بجهد واحد بالألف يعرف كما يجب ، كتابة تحرير الى صديق باللغة اللاتينية . اما اذا كان الغرض الكتابة في العربية ، فأنك تجد جمهرة من الاشخاص يعبرون على وجه موافق وبلباقة فائقة في هذه اللغة ، وسترى انهم ينظمون أشعاراً ، تفضل من وجهة نظر الفن الاشعار التي ينظمها العرب انفسهم"[32] .

خامساً : أستمرار وجود العلاقات التجارية مع بلاد الأندلس تلك العلاقات التي ظلت قائمة على الرغم من العداءات بحيث تقارب العالمان المتضادان عبر العلاقات التجارية ذات الأهمية الدائمة[33] .

سادساً : التقارب السياسي بوساطة السفارات الدبلوماسية . ولقد نوه بتبادل علاقات سياسية طوال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين بين بيزنطة وقرطبة ، ولاسيما في ظل حكم عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر . وتذكر الرواية الغربية ان هذا الأخير قد طلب من (نبسيفور فوكاس) أن يبعث اليه خبيراً في صنع الموزاييك بقصد تزيين التوسع الذي كان يزمع القيام به مسجد قرطبة[34] .

وفي أواخر سنوات حكم الناصر بلغ من أزدهار بلاده وتألق أضواء قرطبة أن وفد السفراء عليه من شتى بلاد اوروبا . وقد أرسل اليه أمبراطور الأمبراطورية الجرمانية المقدسة ، ويسميه

المؤرخون "هوتو ملك الصقالبة" سفارة استقبلها الناصر في البهو الكبير في مدينة الزهراء ، وبعث اليه "هيوكابية" ملك الفرنجة في فرنسا ، ويسميه مؤرخونا "هوفو ملك الفرنجة". وكذلك أرسل اليه "قلدوا ملك الفرنجة في أقصى شرق أوروبا والمقصود به Hugo de Arles وهو مركيز "بروفنا" في جنوب فرنسا .

وأرسل اليه سفارة كونت برشلونة وطركونة . بل أرسل اليه صاحب روما ، وهو البابا سفارة تخطب وده ، وفي هذا ما يدل على ما وصل الناصر من عظمةوجلال في انظار ملوك الغرب[35] .

وذكر ابن حيان وغيره "ان ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن وهادته الروم ، وازدلفت اليه تطلب مهادته ومناصفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الأمم الا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى، فأنه هاداه ، ورغب في موداعته"[36] . وفي عهد الحكم المستنصر بدأت سفارات الممالك الأوربية تتوافد من جديد على قرطبة . وقد وصف لنا أبن حيان استقبال هذه السفارات في الزهراء والمراسم التي كانت تتبع كلها ، بل أرسل (يوحنا الشميشق) أمبراطور بيزنطة سفارة الى قرطبة سنة 361هـ/972م ، وكذلك أرسل (اوتو الثاني) أمبراطور المانيا ، الذي خلف (أوتو الأول) سفارة لتجديد المودة والصداقة مع قرطبة[37] .

سابعاً : اللاجئون السياسيون مثل المستعربين الذين على الرغم من تعايشهم مع المسلمين بروح من التسامح مدةً من الزمن ، هاجروا الى شمال شبه الجزيرة في مراحل التعصب والتزمت الديني ، للعيش مع اخوانهم النصارى هناك[38] .

ثامناً : خزائن المدونات في أديرة شبه الجزيرة ، ولاسيما (سانتا ماريا دي ريبول) الذي اقتنى بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد أعداداً كبيرة من المؤلفات العلمية العربية ، لترجمتها من قبل رهبان الدير الذي أنحدر العديد منهم من أصل مستعرب[39] .

تاسعاً : مدارس الترجمة التي أنشاها الملوك والاساقفة في طليطلة عقب سقوطها بأيدي النصارى سنة 478هـ/1085م ، مثل الاسقف (رود ريغو خمينيث دى رادا) وملك قشتالة وليون (الفونسو العاشر) الملقب بالحكيم ، وكان الغرض من انشاء مدارس الترجمة تلك ، هو التعرف بعمق على مضامين الحكمة العربية المتراكمة في خزائن الكتب الكبيرة للحكام المسلمين السابقين . وقد شكلت اعمال الترجمة قناة غير مباشرة ، ولكنها ملموسة جداً ، لنقل الثقافة الإسلامية من بلاد

الأندلس الى أوروبا . وأدت مدارس الترجمة تلك الى اجتذاب مجموعة من رجال الفكر ذوي الأصول الأوروبية المختلفة المنتمين الى الأديان التوحيدية الثلاثة (الإسلام والنصرانية واليهودية) الى شبه الجزيرة ، مما أضطرهم الى التعايش جنباً الى جنب خلال أعمال الترجمة ؛ ليقوموا بعد ذلك بنشر نتائج ترجماتهم للمخطوطات العربية في بلدانهم الأصلية[40] .

عاشراً: وقد تم أيضاً بطبيعة الحال انتقال وتبادل حضاري في ميدان الفن عن طريق المحاكاة ، فنسخت في طرز ملابس المراسيم لبعض الملوك النصارى كتابات بالخط الكوفي (أدعية او آيات قرآنية) ، ظناً بان تلك الكتابات ليست الا نقوشاً للزينة خالية من المعنى[41] .

حادي عشر : أن الاختلاف الكائن بين الديانتين الإسلامية والمسيحية لم يكن عائقاً في وجه علاقات زوجية بين مسلمي الأندلس والفتيات المسيحيات إذ تؤكد المصادر وجود مزاوجات من الطرفين بين شخصيات من الطبقة الارستقراطية أو من ذوي الدم الملكي ، فجدة عبد الرحمن الناصر هي الأميرة المسيحية (دونيا أينيقيا)، فيما كانت ام الخليفة هشام المؤيد (366 – 399هـ/ 976 – 1009م) هي "صبح" الملقبة بالبشكنسية ، وهي في الحقيقة نافارية[42]. وهكذا الحال بالنسبة لكثير من الزيجات التي تمت في أوساط الطبقة الحاكمة ، أو بين عامة الشعب . وقد كان لهذه الزيجات تأثير غير مباشر في نقل الكثير من العادات والمظاهر الحضارية بين الطرفين وبخاصة بين أسر العائلات المسيحية التي صاهرت المسلمين.

ثاني عشر : لقد ساهم المستعربون أيضاً ، وهم نصارى الأسبان الذين عاشوا مع العرب في الأندلس في نقل الحضارة العربية الى أسبانيا النصرانية ، ، لأن هؤلاء بحكم معرفتهم للغتين العربية والأسبانية القديمة كانوا يتنقلون بحرية من أراضي الأندلس الى الأمارات الأسبانية ، ومعهم الكثير من مظاهر الحضارة[43] .

الأثر الحضاري للأندلس المسلمة على الممالك الأوربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين

مما لاشك فيه أن عوامل التغلغل الحضاري المتبادل لايمكن قياسها أحياناً بمقتضى معايير الاحصاء الباردة مثلما يعمل بعضهم مؤخراً ، كما يتعذر الاستدلال عليها حال حصولها في زمنها ؛ لأن التأثير الحضاري المتبادل ليس تأثيراً كمياً في غالب الاحوال ، بل يعتمد على قدرة التقبل لمن يتمثل ويستوعب ، وعلى تقارب الطرفين ، المؤثر والمتأثر الأمر الذي لايسع تقويمه الا عن بعد ، وعقب مضي وقت من الزمن[44] .

ومع ذلك ، فمن المسلم به أن تأثير الحضارة الاندلسية في أوربا كان قد بدأ منذ القرن الثامن الميلادي . ولقد أتخذهذا التأثير صوراً واشكالاً نظراً للحالة التي كانت عليها اوروبا حينئذ . ويمكن تمييز ثلاث مراحل لأثر الحضارة الاندلسية في أوروبا من بدايتها الأولى وحتى عصر النهضة ، وهي : عصر التأثير غير المباشر ، عصر الترجمة من العربية الى اللاتينية ، عصر الاستعراب – قمة التأثير العربي[45] .

أن ما يعنينا في هذا البحث ، هو أن نلقي الضوء على أهم المجالات التي استفادت منها أوروبا من الحضارة العربية في الاندلس خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . وعلى ذلك، فسنقتصر على مناقشة عصر التأثير غير المباشر الذي أستمر زهاء ثلاثة قرون ، عملت على وضع أول خطوة في طريق تغيير العقلية الأوروبية . وقد بدأ هذا العصر كما ذكرنا ، من القرن الثامن الميلادي الى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي حيث يبدأ الثاني ، وهو عصر الترجمة العربية الى اللاتينية .

لقد لعبت الأندلس العربية دوراً بارزاً في نقل الحضارة الى أوروبا ، فانتقل عن طريقها وعن طريق صقلية والحروب الصليبية ، تراث العرب الإسلامي الى أوربا المسيحية التي كانت تعيش عصر التخلف والاقطاع ، واصبحت دور العلم في الأندلس قبلة الدارسين الأوروبيين الذين نقلوا مختلف أوجه الحضارة معهم الى بلادهم سواء أكان في مجال العلوم والطب والفلسفة والزراعة أم في ميادين الآداب والفنون ، أهم ساحات العمران والبناء ، أم فيما يتعلق بالنظم وأساليب الحكم والادارة[46] .

قبل أن نبدأ ببيان أثر الحضارة العربية في الاندلس على أوربا ، لابد لنا أولاً من الاشارة الى أهم المظاهر الحضارية الإسلامية التي انتقلت الى الشمال الأسباني ؛ لأن وقوع المناطق العربية الإسلامية بيد الامارات الأسبانية ، كان عاملاً مهما في الاتصال والاحتكاك بين الطرفين ، وما أعقبه من انتقال العلوم والفلسفة ، وكثير من مظاهر الحياة العامة الإسلامية الى الشمال . فضلاً عن ذلك ، فقد أنتقلت أيضاً كثير من التنظيمات القانونية والحربية من الاندلس الى الامارات الأسبانية[47] .

ومن التأثيرات الأخرى التي تبودلت بين الطرفين التأثيرات اللغوية . فلقد كانت المصطلحات العربية شائعة في كل من ليون وقشتالة ونافار ، والمناطق الاخرى في الشمال . كما دخل في اللغة الرومانسية ، وهي اللغة الأسبانية القديمة الناتجة من اللهجة اللاتينية – الايبيرية ، التي

كانت في طور التكوين في ذلك الوقت ، الكثير من الكلمات والمصطلحات العربية ، وكان هناك الكثير من العرب الذين يفهمون هذه اللغة ويتكلمون بها ، وبشكل خاص في مناطق الثغور والحدود . وفي الوقت نفسه ، كان هناك الكثير من المسيحيين الذين لهم المام ومعرفة باللغة العربية . ويبدو الأثر العميق الذي مارسته الثقافة العربية الاندلسية على السكان المسيحيين في شبه الجزيرة الايبيرية من الاستعارات اللغوية التي اقتبستها اللغة الأسبانية من اللغة العربية[48] . فلقد وجدت اللغة الأسبانية نفسها كما يقول (ليفي بروفنسال) : "مضطرة طيلة مرحلة نموها ، وحتى القرن الحادي عشر في الاقل ، الى ان تأخذ من العربية كل ما ينقصها حتى ذلك الوقت للتعبير عن المفاهيم الجديدة ، وبخاصة في مضمار المؤسسات والحياة الخاصة"[49] . واذا القينا نظرة على اصطلاحات التنظيم المدني او العسكري لدى أسبانيا في العصور الوسطى او في العصر الحديث فأننا نكتشف فيها عدداً ضخماً من المفردات ذات الأصل العربي ، ففي الجيش مثلاً ، يطلق على رتبة الملازم حتى الان Alferez ، وهي الكلمة العربية (الفارس) ، ويطلق على المقدمة Atalaya ، وهي الكلمة العربية (الطليعة) . والى جانب ذلك تحتل العربية في تعبيرات (البناء) الفنية مكاناً كبيراً ، فالمعماري يسمى Albanil ، وهي (البناء) في العربية . ولايقل أثر العربية وضوحاً في مؤسسات الدولة ، ومفردات الحياة اليومية ، واسماء الأماكن والأنهار والمدن . بل مازالت العربية باقية حتى الآن ، في مفردات بعض المصطلحات الزراعية المتداولة في لغة الريف الصميمية وفي مقاييس وموازين كل حقل قروي ، وفيما يتعلق بالري ، وفي المفردات الخاصة بصيد البحر.

ان ماتقره معجمات علم النبات من الألفاظ العربية لايقل نسبة عن ذالك ، اذ إن أكثرية أسماء الفواكه والأزهار تشهد على أصلها العربي ، وقد انتقل أيضاً عدد كبير من هذه الاسماء الى المفردات الفرنسية عبر البيرنية ، مثل : الياسمين (Jasmin) ، والقطن والزيت (aceite). ولاننسى كذلك ان اللغة الفرنسية تدين عن طريق الأسبانية ، الى العربية بعدد من أسماء الألوان المستقلة عن أسماء الازهار والفاكهة ، مثل الأزرق (azur) ، والقرمزي (Carmaisie) وغيرهما[50] .

ولم يقتصر أثر العرب الحضاري على الامارات النصرانية في الشمال وعلى النواحي الثقافية واللغوية فحسب ، بل شمل أيضاً مجالات اخرى ، منها الفنون ، وبخاصةٍ في العمارة والبناء الذي نقله المدجنون والذي ظهر في أسبانيا النصرانية منذ بداية القرن التاسع الميلادي ، وظل فيها

بشكل نهائي تقريباً . كذلك يظهر تأثير المسلمين على أسبانيا النصرانية في تطور الفنون الصغرى ، مثل صناعة العاج ، والمصنوعات الذهبية والزجاجية والخزفية والتطريز . وظلت هذه الصناعات مستمرة في المدن التي استعادها الأسبان ، والى أمد غير قصير بعد عصر الأمارة ، بل حتى خروج العرب من الأندلس . وان قيام بعض ملوك الأسبان في وقت لاحق بضرب عملاتهم وهي تتضمن وجهين : عربي وقشتالي ، وارتداءهم الملابس على الطريقة الإسلامية ، ليدل على مدى العمق الذي تغلغلت فيه الحضارة العربية الإسلامية في نفوس الأسبان النصارى وعلى أعلى المستويات[51] .

على الرغم من أوروبا كانت "قد أقرت عن طيب نفس بدينها إتجاه العرب كوسطاء في نقل الفلسفة والطب والرياضيات عن الأغريق ؛ لأن مثل هذا الأقرار لايقوض أساس الاسطورة المتداولة عن الهوية الثقافية الأوربية ذات الأصول الفكرية والقبة الاغريقية الرومية ، والمشربة بالاخلاق المسيحية "(52) ، الا ان واقع الحال ينطوي على حقائق أكثر من ذلك بكثير . ففي مجال الرياضيات كان العرب كما هو معروف قد أخذوا الأرقام الحسابية من الهند ، وعن طريقهم انتقلت الاعداد ، وبضمنها الصفر الى الاندلس ، ومنها الى أوربا . وأول من أخذ الأرقام العربية من الاوربيين هو كما أشرنا آنفاً (جربرت) الذي عرف فيما بعد بالبابا سلفستر الثاني الذي درس في الأندلس ، وبعدها ألف كتاباً شرح فيه كيفية استخدام الأرقام العربية نتيجة أعمال (ليونارد ودى ليزا) الذي توفي في العام 1240م ، والذي درس الرياضيات على يد معلم عربي في شمال أفريقية ، وأصدر كتاباً يشرح فيه نظام كتاب التصريف لخلف بن عباس الزهراوي (توفي في العام 427هـ) قد استمر لمدة خمسة قرون عمدة في الأمور الجراحية في أوروبا ، وقد ترجم الى اللاتينية والعبرية عدة مرات . فيما كان كتاب في العقاقير لماسوية المارديني (توفي العام 406هـ) بمثابة الكتاب المدرسي في الصيدلية في أوروبا لعدة قرون . ولاننسى كذلك دخول كلمات عربية الى اللغات الأوربية المختلفة سواء أكان مباشر ، أم عن طريق اللغة الأسبانية أو اللاتينية التي كانت لغة العلم والأدب في تلك العصور[54] .

ومما هو جدير بالذكر أن معظم علماء النبات والزراعة المسلمين ، قد نبغوا في الأندلس، وان الزراعة لم تصل في أي بلد آخر في العالم الإسلامي ، بل في سائر أنحاء العالم المعروف يومذاك ، الى ماوصلت اليه في الأندلس من التقدم والازدهار ؛ لذا كان طبيعياً أن تنتقل الفنون الزراعية على يد الرواد المسلمين ، وعلى يد الحملات الإسلامية المتعددة التي قامت خلال القرن

العاشر الميلادي في جنوبي فرنسا ، وفي ليجوريا وجنوبي سويسرا الى شعوب هذه الاقطار . ويقال ان القمح الأسود الذي يعد اليوم من أهم محاصيل فرنسا الجنوبية أنما هو أثر من آثار اولئك الرواد ، فهم الذين نقلوا بذوره الى فرنسا ، وهم أيضاً الذين نقلوا فسائل النخيل الذي مازالت تزدان به شواطىء الريفيرا[55] .

ومن المناسب هنا الاشارة الى ان التقويم الشهير الذي وضعه الدبلوماسي (ريكمند) حتى العام 350هـ/961م يسرد بتفصيل دقيق زراعة المحاصيل المختلفة وتربية المواشي من شهر الى آخره ويعرض صورة قيمة عن الانجازات الكبيرة التي حققتها الأندلس في هذا المجال[56].

ويجب أن لاننسى أيضاً ، أنه "عن طريق فن قرطبة في عصر الخلافة مباشرة اقتبس الفن الروماني بلاريب ، جزيئات عديدة ؛ لتزيين كنائس هذا الفن" . فيما يقرر (ايلي لامبيرت) في دراسة له "أن مهندسي البناء والمزخرفين المسيحيين في فرنسا واسبانيا ، قد اقتبسوا بالتأكيد في عصر الفن الروماني عدداً وافراً من خيرة أشكال فن الإسلام الأسباني – المغربي ، الا أنهم كانوا دائماً يقلدون تلك الاشكال في أوسع مجال من الحرية ، أي بمعنى آخر كانوا يبدلون فيها بروحية تختلف تمام الاختلاف عن الروحية التي ألهمت في ابداع نماذجها"[57] .

"وفي ميدان الفن ، انعكس التصور الكوني الشمولي للإسلام ، ذاك التصور الناتج عن تلك القدرة على الجمع الكلي والبناء في آنٍ واحد . فقد عرف المسلمون كيف يتمثلون المتطورات التقنية للحضارات التي دانت لهم سياسياً كالحضارة الرومانية – البيزنطية والحضارة الفارسية ، كما عرفوا في الوقت ذاته كيف يطبعونها بطابع عبقريتهم الخاصة في الابتكار والخلق ، فبرز اساتذتهم في حالات كثيرة . وانتفعت أوربا من ذلك كله أنتفاعاً عظيماً"[58] .

واشتهرت الأندلس كذلك بصناعة الورق الجيد . وكان الورق الشاطبي (نسبة الى مدينة شاطبة) معروفاً في العالم الإسلامي كله . وبلغ من جودته أن بعض الوثائقيين كانوا لايكتبون الا عليه . والى جانب جودة نوعه أشتهر برخص ثمنه . وقد وصلت الرقاق الشاطبية الى جميع نواحي أوربا وطلبتها البابوية لكتابة الاناجيل ووثائق الكنيسة عليها ثم قاد الايطاليون صناعتها بعد ذلك[59] .

وبقي أن نذكر ما تركه الموسيقي المعروف بـ(زرياب) من أثر في أوربا ، ونستشهد في ذلك ، على ما شارت به المستشرقة الألمانية (سيجريد هونكة) في كتابها (شمس الله تشرق على الغرب) الذي تتحدث فيه عن فضل العرب على أوربا: "وأن المقاطع (دو – ري – مي – فا –

صول) لم تكن كما يدعي الأوربيون وبعض المغرضين أنها من وضع (جيد والاريزي حوالي سنة 1026م . أنما هي اقتبست من المقاطع النغمية للحروف العربية (د – ر – م –ف – صل)، وتجمعها الكلمتان (در مفصل) . وأكد ذلك الاستاذ (الدكتور جورج فارمر) المستشرق الانكليزي المعروف بدراسة الموسيقى العربية ومخطوطاتها وتراثها"[60] . وبلغ عدد طلاب البعثات أيام عبد الرحمن الأوسط (سنة 213هـ) وفي زمن زرياب ، سبعمائة طالب وطالبة ، التحق بعضهم بمدرسة زرياب الغنائية الموسيقية بقرطبة ، ليتعلموا أصول الغناء والرقص والعزف وفنون الشعر . اما عن أثره في عالم أدوات الموسيقى والطرب ، فهذا ما نجده في آلة (البيانو) التي كان أصلها عربياً وهي من مخترعات زرياب ، وهي التي كانت تدعى (الشقير) فضلاً عن (العود) والقيثار) و (الدف) و (الصنوج) ، و (النقير) و (الطبل) و (الرباب)[61] .

الخاتمة

كانت قرطبة عاصمة خلافة عبد الرحمن الناصر ، في قمة عظمتها مركزاً للاشعاع الفكري والثقافي والعمراني ، وليس في الاندلس فحسب بل في كل البلاد الإسلامية . ومما يروي عن تطورها العمراني ،ان بلاط الخليفة في مدينة الزهراء ، كان عبارة عن قصر تقوم فيه قواعد الجص بالدوران حول نفسها ، كما ان أشعة الشمس تنفذ ببطء من خلال الألواح المخرمة في السقف ، وتعمل على تأجيج القرميد الباهر الذي وصفت به الجدران ، وكل هذه الألوان التي هي حركة دائبة كانت بدورها تنعكس على نافورات أرضية تزود من خزانات لاتحوي الماء ، بل الزئبق . وعندما زار ملك صغير الشأن من الشمال يدعى (أوردونو) عبد الرحمن الناصر ، أغمي عليه بسبب هذه العجيبة العمرانية التي كانت براعة صنعها ، فوق ما يتصورها فهمه .وزيادة على ذلك كان هناك أزدهار في مجال التعليم ، ومع انه قد يكون من قبيل المبالغة ، ان نؤيد ما ذهب اليه الباحث الهولندي المعروف (رينهارت دروزي) في "ان كل شخص في قرطبة ، كان يعرف القراءة والكتابة" فأنه لمن المؤكد انه خلال هذه السنوات التي بلغت فيها الأندلس ذروة الحضارة ، فان العلم الأوربي لم يكن قد حصل الا على أقل القليل من المعرفة . ومن هنا كان طبيعياً ان نجد اشخاصاً من جميع البلدان الأوربية جاؤوا الى قرطبة ؛ لينهلوا من منابع العلم والمعرفة الأندلسية . لقد تعلم (سليفستر الثاني) الذي أصبح فيما بعد البابا ، على أيدي العرب في طليطة ، كما ان العالم السياسي الأسباني (السيد سانشيز – ألبونوز) ، الذي كان رئيساً لجامعة مدريد ، وسفيراً لبلاده ، ثم وزيراً لشؤونها الخارجية ، قد أعترف بدون مواربة قائلاً إن المسألة اليوم ليست مسألة ظلمات العصور الوسطى ، ولكن علينا ان نرى مقابل اوربا التي تنمو في التعاسة والانحطاط ، حضارة أسبانيا المسلمة ، الرائعة . فأن اساتذة الدراسات العربية يفتحون لنا في كل مرة ، آفاقاً جديدة عن مدى تألق هذه الثقافة الأسبانية – المغربية وعمقها . فقد أدعوا ان لها مقاماً حاسماً في تكوين الفلسفة والعلم والشعر وجميع ثقافة أوربا المسيحية ، وبرهنوا على ان تأثيرها قد بلغ حتى ذرى الفكر الوسيط ، والقديس توماس ودانتي . ومع نفور كثيرين ، في كل ناحية من ناحيتي جبال البيرنية والبحر المتوسط ، حتى الآن من الاقرار لها بهذا التفوق ، وذلك الدور الموجه ، الا أن براهين وافية للغاية ، تؤكد حقيقة مفادها أنه منذ الآن ، وحتى يبزغ فجر يوم آخر ، ستقضي قرون عديدة ، قبل أن تعمل النهضة ثانية على تفجير ينابيع كادت تنضب كان نهر الحضارة الاندلسية في قرطبة قد استمد منها جوهر الفكر القديم ، ثم نقله الى العالم الجديد .

المراجع والهوامش

1. الدكتور ناجي معروف ، المدخل في تاريخ الحضارة العربية ، مطبعة العاني ، بغداد ، 1960م ، ص240 .
2. الدكتور خليل إبراهيم السامرائي ، حضارة العرب في الاندلس ، كتاب تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، الموصل ، 1986 ، ص313 .
3. الدكتور خاشع المعاضيدي ، تاريخ العرب في الاندلس 92 – 897هـ/711 – 1492م ، بغداد ، 1986 ، ص248 .
4. اكسيراثيون غارثيا سانشيز ، الزراعة في أسبانيا المسلمة ، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، مركز دراسات الوحدة العربية ،ط1 ،ط2 ، بيروت ، كانون الأول ، 1998 ، ص1367.
5. روبرت هيلنبراند ، "زينة الدنيا" : قرطبة القروسيطية مركزاً ثقافياً عالمياً ، ج1 ، بلاتاريخ ، ص190 .
6. محمود مكي ، تاريخ الاندلس السياسي (92 – 897هـ/ 711–1492م) ، المرجع نفسه ، ص75 .
7. الدكتور خليل أبراهيم السامرائي ، حضارة العرب في الأندلس ، مرجع سابق ، ص318 .
8. محمود مكي ، تاريخ الأندلس السياسي ، مرجع سابق ، ص77 .
9. الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر ، ج1 ، بيروت ، 1388هـ – 1968م، ص347 .
10. محمود مكي ، تاريخ الاندلس السياسي ، مرجع سابق ، ص77 .
11. المرجع نفسه ، ص77 .
12. الدكتور حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والاندلس ، دار ومطابع المستقبل ، ط1 ، القاهرة ، 1980 ، ص289 .
13. محمود مكي ، تاريخ الأندلس السياسي ، مرجع سابق ، ص82 .
14. ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بلاتاريخ ، ص58 .

15. ينظر المرجع نفسه ، ص21 .
16. محمود مكي ، تاريخ الأندلس السياسي ، مرجع سابق ، ص ص88 – 89 .
17. الدكتور حسين مؤنس،معالم تاريخ المغرب والأندلس ، مرجع سابق ، ص ص328– 329 .
18. محمود مكي ، تاريخ الأندلس السياسي ، مرجع سابق ، ص89 .
19. محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الاندلس : الخلافة الأموية والدولة العامرية، مكتبة الخانجي ، ط4 ج2 ، القاهرة ، 1389هـ – 1969م ، ص701 .
20. الدكتور أبراهيم سلمان الكروي والدكتور عبد التواب شرف الدين ، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، منشورات ذات السلاسل ، ط2 ، الكويت ، 1407هـ – 1987م ، ص456 .
21. ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الأندلس ، مرجع سابق ، ص69 .
22. المقرىء ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، مصدر سابق ، ص395 .
23. محمود مكي ، تاريخ الأندلس السياسي ، مرجع سابق ، ص91 .
24. المرجع نفسه ، ص95 .
25. الدكتور خليل أبراهيم السامرائي ، حضارة العرب في الاندلس ، مرجع سابق ، ص ص 330 – 331 .
26. مارغريتا لوبيز غوميز ، اسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، ج2 ، مرجع سابق ، ص ص1477 – 1478 .
27. الدكتور خليل أبراهيم السامرائي ، أثر الحضارة العربية في الأندلس على أوربا ، كتاب تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، مرجع سابق ، ص ص474– 475.
28. المرجع نفسه ، ص475 .
29. المرجع نفسه ، ص476 .
30. المرجع نفسه ، ص477 .
31. مارغرينا لوبيز غوميز إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الاندلس ، مرجع سابق ، ص1478 .
32. ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الأندلس ، مرجع سابق ، ص80 .

33. مارغريتا لوبيز غوميز ، أسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس، مرجع سابق ، ص1478 .
34. ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الأندلس ، مرجع سابق ، ص82 .
35. الدكتور حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، مرجع سابق ، ص ص330 – 331 .
36. المقرىء ، نفع الطيب ، ج1 ، مصدر سابق ، ص83 .
37. الدكتور حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، مرجع سابق ، ص335 .
38. مارغريتا غوميز ، إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس مرجع سابق ، ص1478 .
39. المرجع نفسه ، ص1478 .
40. المرجع نفسه ، ص ص1478 – 1479 .
41. المرجع نفسه ، ص ص1480 – 1481 .
42. ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الأندلس ، مرجع سابق ، ص81 ؛ الدكتور حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، مرجع سابق ، ص339 .
43. الدكتور عبد الواحد ذنون طه ، عهد الأمارة في الاندلس ، كتاب تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس ، مرجع سابق ، ص44 .
44. مارغريتا غوميز ، إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس مرجع سابق ، ص 1481 .
45. الدكتور خليل أبراهيم السامرائي ، أثر الحضارة العربية في الأندلس على أوربا ، مرجع سابق ، ص474 ومابعدها .
46. الدكتور خاشع المعاضيدي ، تاريخ العرب في الاندلس ، مرجع سابق ، ص249 .
47. الدكتور عبد الواحد ذنون طه ، عهد الأمارة في الأندلس ، مرجع سابق ، ص ص 144 – 145 .
48. الدكتور عبد الواحد ذنون طه ، دراسات أندلسية (المجموعة الأولى) ، منشورات مكتبة بسام ، ط1 ، الموصل 1986 ، ص ص172 – 173 .
49. ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الأندلس ، مرجع سابق ، ص89 .

50. المرجع نفسه ، ص89 ومابعدها .
51. الدكتور عبد الواحد ذنون طه ، دراسات اندلسية (المجموعة الأولى) ، مرجع سابق، ص ص173 – 174 .
52. روجر بواز ، التاثير العربي في الشعر الغزلي الأوربي ، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، ج1 ، مرجع سابق ، ص657 .
53. الدكتور خليل أبراهيم السامرائي ، أثر الحضارة العربية في الاندلس على أوربا ، مرجع سابق ، ص .
54. المرجع نفسه ، ص486 .
55. محمد عبد الله عنان ، علماء الزراعة الاندلسيون ، مجلة العربي ، العدد144 ، الكويت ، رمضان 1390هـ /تشرين الثاني 1970م ، ص ص87 – 88 .
56. روبرت هيلنبراندة "زينة الدنيا" : قرطبة القروسطية مركزاً ثقافياً عالمياً ، مرجع سابق ، ص192 .
57. ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الأندلس ، مرجع سابق ، ص97 .
58. مارغرينا لوبيز غوميز ، اسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس، ص1480 .
59. الدكتور حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص334 .
60. الدكتور محسن جمال الدين ، أثر زرياب وأسرته البغدادية في الأندلس ، مجلة التراث الشعبي ، العدد الفصلي الثاني ، بغداد ، ربيع 1987م ، ص106 .
61. المرجع نفسه ، ص106 .